الوصية الجامعة

لخير الدنيا والآخرة

الامام شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيميه

تحقيق

خادم السنة المطهرة

أبو هاجر محمد السعيد زغلول

مكتبة التراث الإسلامي

مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٣٥٥٣٨٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن سيدنا ونبينا محمداً رسول الله اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ...

فهذا كتاب الوصية الجامعة لخيرى الدنيا والآخرة لشيخ الإسلام ابن تيميه رحمه الله وأجزل الله له الأجر والمثوبة، بين فيه الأمور التى تتعلق بحياة الفرد المسلم الواجب عليه فعلها والتى أوصانا بها المولى عز وجل ورسوله الكريم ﷺ ووضح لنا فى هذه الرسالة الصغيرة أن المسلم يجب أن يكون كله لله فى حركاته وسكناته لأن المولى تبارك وتعالى يقول : ﴿ وما خلقت الجن



التعريف بابن تيمية

هو شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية النُميرى الحرانى الدمشقى .

وتيمية هى والدة جده الأعلى (محمد) وكانت واعظة راوية ونسب هذا البيت الكريم إليها .

ولد فى حران من أمهات مدن الجزيرة بين دجلة والفرات سنة ٦٦١ هـ . وقدم به والده إلى دمشق مع أسرتهم عند استيلاء التتار على بلادهم وفى دمشق أخذ العلم عن رجالاتها يوم كانت موئل العلم والدين .

وكان مشهوراً بالزهد والورع والعبادة مع الشجاعة والفروسية فكان المدافع عن البلاد بسيفه . كما كان المدافع عن عقائد الأمة بلسانه وقلمه .

وقد قام بالدفاع عن دمشق عندما غزاها التتار وحاربهم عند شقحب – جنوبى دمشق – وكتب الله هزيمة التتار .

وبهذه المعركة سَلمَت بلاد الشام وفلسطين ومصر والحجاز .

وطلب من الحكام متابعة الجهاد لإبادة أعداء الأمة الذين كانوا عوناً للغزاة .

فأجج ذلك حقد الحكام وحسد العلماء الأقران ودس المنافقين والفجار . فناله الأذى والسجن والنفى والتغريب فما لان ولا خضع .

وكانت كلمته المشهورة : « مايصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى أَنَّى رحت فهى معى لا تفارقنى ، أنا حبسى خلوة ، وقتلى شهادة واخراجى من بلدى سياحة »

وكان يقول فى السجن وما أكثر ما سجن .

المحبوس من حُبس قلبه عن ربه والمأسور من أسره هواه .

وقد زادت مؤلفاته على ثلاثمائة مؤلف فى مختلف العلوم ومنها ماهو فى المجلدات المتعددة .

وكانت وفاته فى سجن قلعة دمشق ليلة الإثنين لعشرين خلت من ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ عليه رحمة الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا سؤال أبى القاسم المغربى :

يتفضل الشيخ الإمام ، بقية السلف ، وقدوة الخلف ، أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية بأن يوصنى بما يكون فيه صلاح دينى ودنياى ، ويرشدنى إلى كتاب يكون عليه اعتمادى فى علم الحديث ، وكذلك فى غيره من العلوم الشرعية ، وينبهنى على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات ، ويبين لى أرجح المكاسب . كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار . والله تعالى يحفظه ، والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته .

الجــواب

الحمد لله رب العالمين .

الوصــية

أما الوصية ، فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها . قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[1] .

ووصى النبى ﷺ معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال : « يا معاذ : اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[2] .

---

(١) سورة النساء آية ١٣١ .

(٢) الترمذى ١٩٨٧ وقال الترمذى : حسن صحيح - المستدرك ٢/١٧٧ .

قال المبارك فورى فى التحفة ٦/١٢٢ قوله (اتق الله) أى بالاتيان بجميع الواجبات والانتهاء عن سائر المنكرات فإن التقوى أساس الدين وبه يرتقى إلى مراتب اليقين « حيث ما كنت » أى فى الخلاء وفى النعماء والبلاء فإن الله عالم بسر أمرك كما أنه مطلع على ظواهرك فعليك برعاية =

وكان معاذ رضى الله عنه من النبى ﷺ بمنزلة عَلِيّة ، فإنه قال له : « يا معاذ : والله إنى لأحبك »[١] .

=دقائق الأدب فى حفظ أوامره ومراضيه والاحتراز عن مساخطه ومساويه . قال تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

« واتبع السيئة » الصادرة منك صغيرة وكذا كبيرة على ما شهد به عموم الخبر وجرى عليهم بعضهم لكن خصه الجمهور بالصغائر « الحسنة » صلاة أو صدقة أو استغفار أو نحو ذلك « تمحها » أى تدفع الحسنة السيئة وترفعها ويمحو الله بها آثارها من القلب أو من ديوان الحفظة وذلك لأن المرض يعالج بضده فالحسنات يذهبن السيئات « وخالق الناس » أمر من المخالقة مأخوذ من الخلق مع الخلق أى خالطهم وعاملهم « بخلق حسن » أى تكلف معاشرتهم بالمجاملة وغيرها من نحو طلاقة وجه وخفض جانب وتلطف وايناس وبذل وندى وتحمل أذى فإن فاعل ذلك يرجى له فى الدنيا الفلاح وفى الآخرة الفوز بالنجاة والنجاح .

(١) أحمد ٥/٢٤٥ - حلية الأولياء ١/٢٤١ ، ٥/١٣٠ - موارد الظمآن ٢٣٤٥ - ابن خزيمة ٧٥١ - أبو داود ١٥٢٢ عن معاذ ابن جبل أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال : يا معاذ والله إنى لأحبك « والله أنى لأحبك » فقال : « أوصيك يا معاذ لا تدعنّ فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »

وكان يردفه وراءه . وروى فيه أنه أعلم الأمة بالحلال والحرام[١] ، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة[٣] - أى بخطوة .

---

(١) رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال :

قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَرْحَمُ أُمَّتِى بِأُمَّتِى أَبُو بَكْرٍ ، وأَشَدُّهُمْ فِى أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَىُّ ابْنُ كَعْبٍ ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرامِ مُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ ؛ أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا ، وَإِنَّ أَمِينَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ ابن الجراح . وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال شارح الترمذى فى التحفة ٢٩٣/١٠ : معاذ بن جبل هو ابن عمر بن أوس الخزرجى يكنى أبا عبد الرحمن شهد بدراً والعقبة وكان أميراً للنبى ﷺ على اليمن ورجع بعده إلى المدينة ثم خرج إلى الشام مجاهداً فمات فى طاعون عمواس سنة ثمانى عشرة .

وفى الزهد لأحمد بن حنبل صـ٢٢٦ لما حضرت معاذ رضى الله عنه قال لمن حوله انظروا أصبحنا ؟ فقيل له قد أصبحت قال : أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار مرحبا بالموت مرحبا بزائراً مغيب حبيب جاء على فاقة : اللهم إنى قد كنت أخافك فأنا اليوم أرجوك اللهم إن كنت تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكرى الأنهار ولا لغرس الشجر =

ومن فضله أنه بعثه النبى ﷺ مبلغاً عنه داعياً ومفقهاً ومفتياً . وحاكماً إلى أهل اليمن[1] .

=ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٤٧/٢ عن محمد بن كعب مرسلا قال ﷺ : « إن معاذ بن جبل أمام العلماء برتوة » والرتوة هى الرمية يعنى بينه وبين العلماء مسافة مقدارها رمية بحجر .

وفى الطبقات لابن سعد ٣٤٨/٢ ، ٥٩٠/٣ ، وأبو نعيم فى الحلية واللفظ له قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو استخلفت معاذ بن جبل رضى الله عنه فسألنى عنه ربى عز وجل : ما حملك على ذلك ؟ لقلت سمعت نبيك ﷺ يقول : « إن العلماء إذ حضروا ربهم عز وجل كان معاذ بين أيديهم رتوةً بحجر » وانظر السلسلة الصحيحة ١٠٩١ - حلية الأولياء ٢٢٩/١ .

(١) البخارى ١٤٧/٢ ، ١٤٠/٩ - فتح البارى ٣٤٧/١٣ مسلم الايمان ٣١ [نووى ١٦٩/١ شعب] .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس=

وكان يشبهه بابراهيم الخليل عليه السلام ، وإبراهيم إمام الناس .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، تشبيهاً له بإبراهيم[1] .

=صلوات فى يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم » .

(١) حلية الأولياء ١/٢٣٠ عن فروة بن نوفل الأشجعى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : إن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً . فقيل إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً فقال . ما نسيت .

هل تدرى ما الأمة وما القانت ؟

فقلت الله ورسوله أعلم .

فقال : الأمة الذى يعلم الناس الخير والقانت المطيع لله وللرسول .

وكان معاذ يعلم الناس الخير ومطيعاً لله ورسوله .

ثم إنه ﷺ وصاه هذه الوصية ، فعلم أنها جامعة ، وهى كذلك لمن عقلها ، مع أنها تفسير الوصية القرآنية .

أما بيان جمعها ، فلأن العبد عليه حقان : حق لله عز وجل ، وحق لعباده .

ثم الحق الذى عليه لابد أن يخل ببعضه أحياناً ، إما بترك مأمور به ، أو فعل منهى عنه ، فقال النبى ﷺ : « اتق الله حيثما كنت » وهذه كلمة جامعة .

وفى قوله : « حيثما كنت » تحقيق لحاجته إلى التقوى فى السر والعلانية .

ثم قال : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضراً أمره بما يصلحه . والذنب للعبد كأنه أمر حتم . فالكيس هو الذى لا يزال يأتى من الحسنات بما يمحو السيئات .

وإنما قدم فى لفظ الحديث « السيئة » وإن كانت مفعولة ، لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة فصار كقوله فى بول الأعرابى « صبوا عليه ذنوباً من ماء »[١] .

---

(١) فتح البارى ٣٢٣/١ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام أعرابى فبال فى المسجد فتناوله الناسُ فقال لهم النبى ﷺ « دعوه وهريقوا على بوله سجلا من ماء - أو ذنوبا من ماء - فإنما بعثتم ميسرين ولم تُبعثوا مُعَسِّرين » .

ونقل ابن حجر عن الموفق فى شرح هذا الحديث أن فيه من الفوائد الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عناداً ولا سيما إن كان ممن يحتاج إلى استئلافه .

وفيه رأفة النبى ﷺ وحسن خلقه قال ابن ماجه وابن حبان فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه فقام الأعرابى بعد أن فقه فى الإسلام فقال إلى النبى ﷺ بأبى أنت وأمى ، فلم يؤنب ولم يسب .

وفيه تعظيم المسجد وتنزيهه عن الأقذار وظاهر الحصر ظاهر من سياق مسلم فى حديث أنس أنه لا يجوز فى المسجد شىء غير ما ذكر من الصلاة والقرآن والذكر .

وفيه أن الأرض تطهر بصب الماء عليها ولا يشترط حفرها .

وينبغى أن تكون الحسنات من جنس السيئات ، فإنه أبلغ فى المحو .

والذنوب يزول موجبها بأشياء : أحدها التوبة[1] .

---

(١) قال النووى فى شرح مسلم ٥٨٧/٥ : [الشعب] :

أصل التوبة فى اللغة : الرجوع ، يقال : تاب وثاب بالمثلثة وآب بمعنى رجع ، والمراد بالتوبة هنا : الرجوع عن الذنب ، وقد سبق فى كتاب الإيمان أن لها ثلاثة أركان : الإقلاع ، والندم على فعل تلك المعصية ، والعزم على ألا يعود إليها أبداً ، فإن كانت المعصية لحق آدمى فلها ركن رابع ، وهو التحلل من صاحب ذلك الحق ، وأصلها الندم وهو ركنها الأعظم ، واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصى واجبة ، وأنها واجبة على الفور ، لا يجوز تأخيرها ، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة .

والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع ، وعند المعتزلة بالعقل ، ولا يجب على الله قبولها إذا وجدت بشروطها عقلا عند أهل السنة ، لكنه سبحانه وتعالى يقبلها كرماً وفضلاً ، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع ، خلافا لهم ، وإذا تاب من ذنب ثم ذكره هل يجب تجديد الندم ، فيه خلاف لأصحابنا=

والثانى : الاستغفار من غير توبة . فإن الله تعالى قد

=وغيرهم من أهل السنة ، قال ابن الأنبارى : يجب ، وقال إمام الحرمين : لا يجب ، وتصح التوبة من ذنب ، وإن كان مصراً على ذنب آخر ، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ، ثم عاود ذلك الذنب ، كتب عليه ذلك الذنب الثانى ، ولم تبطل توبته ، هذا مذهب أهل السنة فى المسألتين .

وخالفت المعتزلة فيهما ، قال أصحابنا : ولو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صحت ، ثم توبة الكافر من كفره مقطوع بقبولها ، وما سواها من أنواع التوبة هل قبولها مقطوع به أم مظنون ؟ فيه خلاف لأهل السنة ، واختار إمام الحرمين أنه مظنون ، وهو الأصح . والله أعلم .

وروى مسلم فى صحيحه ٥٨٧/٥ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِى وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِى أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ .

وروى مسلم فى صحيحه ٥٥٤/٥ عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « من تابَ قبل أن تطلعُ الشمس من مغربها تاب الله عليه » =

يغفر له إجابة لدعائه وإن لم يتب ، فإا اجتمعت التوبة

= قال النووى رحمه الله : قوله ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » قال العلماء : هذا حد لقبول التوبة ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : إن للتوبة باباً مفتوحاً ، فلا تزال مقبولة حتى يغلق ، فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق ، وامتنعت التوبة على من لم يكن تاب قبل ذلك ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾ ومعنى تاب الله عليه : قبل توبته ، ورضى بها .

وللتوبة شرط آخر وهو : أن يتوب قبل الغرغرة ، كما جاء فى الحديث الصحيح ، وأما فى حالة الغرغرة وهى حالة النزع ، فلا تقبل توبته ولا غيرها ، ولا تنفذ وصيته ولا غيرها .

وروى مسلم فى صحيحه ٥٥٣/٥ عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

قال النووى رحمه الله : قوله ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » هذا الأمر بالتوبة موافق لقوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون ﴾ [النور ٣١] وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ [التحريم ٨] وقد=

والاستغفار فهو الكمال .

=سبق فى الباب قبله بيان سبب استغفاره وتوبته ﷺ ، ونحن إلى الاستغفار والتوبة أحوج .

قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : للتوبة ثلاثة شروط : أن يقلع عن المعصية ، وأن يندم على فعلها ، وأن يعزم عزماً جازماً ألا يعود إلى مثلها أبداً .

فإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فلها شرط رابع ، وهو : رد الظلامة إلى صاحبها ، أو تحصيل البراءة منه .

والتوبة أهم قواعد الإسلام ، وهى أول مقامات سالكى طريق الآخرة .

وقال البغوى رحمه الله فى شرح السنة ٥/٨١ . قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ تُوبُوا إلى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] ، قَالَ مُجَاهِدٌ : ٱلنَّصُوح : أَنْ يَتُوبَ مِنَ الذَّنْبِ فَلَا يَعُودَ إِلَيْهِ ، قِيْلَ : تَوْبَةٌ نَصُوحٌ ، أي : صَادِقَةٌ ، يُقَالُ : نَصَحْتُهُ ، أَى : صَدَقْتُهُ ، وقِيْلَ : نَصُوحٌ ، أَى : بَالِغَةٌ فى ٱلنُّصْحِ ، مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلنَّصْحِ وَهُوَ الخِياطَةُ ، كَأَنَّ ٱلْعِصْيَانَ يُخَرِّقُ ، وٱلتَّوْبَةُ تُرَقِّعُ ، وٱلنِّصَاحُ : الخَيْطُ ، وقِيْلَ : نَصُوحًا ، أَى : خَالِصَةً ، يُقَالُ : نَصَحَ ٱلشَّىءُ : إِذَا خَلَصَ ،=

=وَنَصَحَ لَهُ : أَخْلَصَ لَهُ ٱلْقَوْلَ ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وتُوبُوا إِلى اللَّهِ جَمِيْعًا ﴾ [النور: ٣١] .

وقَالَ ٱلشَّعْبِيُ : التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ، ثُمَّ تَلَا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِيْنَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) وقال السخاوى فى المقاصد : حسنه شيخنا - ابن حجر - يعنى لشواهده .

وعَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَدَا اللَّهِ بُسْطَانِ لِمسِيءِ اللَّيْلِ لِيَتُوبَ بالنَّهَارِ ، ولُمسِيءِ ٱلنَّهَارِ لِيَتُوبَ باللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » .

هذا حديث صحيح ، أخرجه مسلم فى التوبة باب قبول التوبة من الذنوب عنْ محمد بن المُثَنَّى ، عن محمد بن جعفر ، عن شُعْبَةَ ، عن عمرو بن مُرَّةَ .

قوله : « يدا الله بُسْطَانِ » كقوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٧] قال الأزهرى : يقال : يدُ فلانٍ بُسُط بضمتين : إذا كان منفاقاً منبسِطَ الباع ، ومثله فى الصفات : روضةٌ أُنُفٌ ، ثم يُخفف ، فيُقَالُ : بُسْط ، كعُنْقٍ وأُذْنٍ . =

= وعَنِ الحَارِثِ بنِ سُوَيْدٍ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ أَعُودُهُ وهُوَ مَرِيْضٌ ، فَحَدَّثَنَا بِحَدِيْثَيْنِ ، حَدِيْثٌ عَنْ نَفْسِهِ ، وحَدِيْثٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : « إنَّ المُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فى أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ ، وإنَّ ٱلْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ مِثْلَ ذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ ، فَذَبَّه عَنْهُ ، قَالَ : وسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فى دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وشَرَابُهُ ، فَنَامَ ، فَاسْتَيْقَظَ وقَدْ ذَهَبَتْ ، فَقَامَ يَطْلُبُهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ ٱلْعَطَشُ ، ثُمَّ قَالَ : أَرْجِعُ إلى المَكَانِ الَّذِى كُنْتُ فِيهِ حَتَّى أَمُوتَ ، قَالَ : فَوَضَعَ يَدَهُ عَلى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ ، فَنَامَ ، فاسْتَيْقَظَ وعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْها زَادُهُ وطَعَامُهُ وشَرَابُهُ ، فَاللَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وزَادِهِ » .

هذا حديث متفق عليه رواه البخارى فى الدعوات باب التوبة ومسلم فى التوبة باب التوبة [٢٧٤٤] .

قال أبو سليمان الخطابى : قوله : « للَّهُ أفرَحُ » معناهُ : أرضَى بالتوبةِ وأقبلُ لها ، والفَرَحُ الذى يتعارَفُهُ الناسُ فى نُعُوتِ بنى آدمَ غيرُ جائزٍ على اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ ، إنما معناهُ الرضى ، كقوله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ كلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِم فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٤] أى : راضُونَ ، وكذلك =

الثالث : الأعمال الصالحة المكفرة :

أما الكفارات المقدرة كما يكفر المجامع فى رمضان والمظاهر والمرتكب لبعض محظورات الحج ، أو تارك بعض واجباته ، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة وهى أربعة أجناس : هدىٌ ، وعتق ، وصدقة ، وصيام .

وأم الكفارات المطلقة كما قال حذيفة لعمر .

=فُسِّرَ الضَّحِكُ الوارِدُ فى الحديث فى صفات الله سُبحانهُ وتعالى بالرضىٰ ، وكذلك الاستبشارُ قد جاء فى الحديث ، ومعناه عندهم : الرضى .

والمتقدِّمُون من أهل الحديث فهِمُوا من هذه الأحاديث ماوقع الترغيبُ فيه من الأعمال والإخبار عن فضل الله عَزَّ وجَلَّ ، وأثبتوا هذه الصفاتِ لله عَزَّ وجَلَّ ، ولم يشتغِلُوا بتفسيرها مع اعتقادهم أن الله سبحانه وتعالى مُنزَةٌ عن صفات المخلوقين ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

فتنة الرجل فى أهله وماله وولده يكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١] .

وقد دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح فى التكفير بالصلوات الخمس والجمعة والصيام والحج وسائر الأعمال التى يقال فيها : من قال كذا وعمل كذا

---

(١) مسلم النووى ٥/٧٢٤ عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال كنا عند عمر فقال أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الفتنة كما قال ؟ قال فقلت أنا . قال : أنك لجرىء وكيف قال ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فتنة الرجل فى أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » فقال عمر ليس هذا أريد ، إنما أريد التى تموج كموج البحر ، قال فقلت مالك ولها يا أميرالمؤمنين و أن بينك وبينها باباً مغلقاً . قال : أفيكسر الباب أم يفتح ؟ قال قلت لا . بل يكسر قال ذلك أحرى ألا يغلق أبداً . قال قولنا لحذيفة هل كان عمر يعلم من الباب ؟ قال : نعم كما يعلم دون غد الليلة ، إنى حدثته حديثاً ليس بالأغاليط قال فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب فقلنا لمسروق : سَلْهُ ، فسأله فقال : عمر .

غفر له ، أو غفر له ماتقدم من ذنبه ، وهى كثيرة لمن تلقاها من السنن خصوصاً ماصنف فى فضائل الأعمال[1] .

واعلم أن العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه ، فإن الإنسان من حين يبلغ ، خصوصاً فى هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات التى تشبه الجاهلية من

---

(١) أحاديث فضائل الأعمال كثيرة جداً كقوله ﷺ :

« من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه وجبت له الجنة » رواه أبو داود باسناد صحيح والنسائى ومن توضأ كما أمر وصلى كما أمر وغفر له ماتقدم من ذنبه . رواه أحمد والنسائى وابن ماجه وابن حبان واسناده حسن ومن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه رواه البخارى وأحمد والنسائى وابن ماجه . ومن ختم له بصيام يوم دخل الجنة رواه البزار عن حذيفة وهو صحيح ومن رمى بسهم فى سبيل الله فهو له عدل محرر رواه الترمذى والنسائى والحاكم وهو صحيح ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن [أحمد والضياء والنسائى] وهو صحيح ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة رواه ابن ماجه وهو صحيح .

بعض الوجوه ، فإن الإنسان الذى ينشأ بين أهل علم ودين قد يتلطخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء ، فكيف بغير هذا ؟

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ من حديث أبى سعيد رضى الله عنه « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ »[1] هذا خبر تصديقه فى قوله تعالى : ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى

---

(١) البخارى ٢٠٦/٤ ، ١٢٦/٩ - مسلم العلم ٦ - ٧ مسلم نووى ٥٢٥/٥ (الشعب) .

قال النووى رحمه الله السَنَن بفتح السين والنون وهو الطريق والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم . والمراد الموافقة فى المعاصى والمخالفات لا فى الكفر . وفى هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فقد وقع ماأخبر به ﷺ .

خاضوا ﴾[١] ولهذا شواهد فى الصحاح والحسان .

وهذا أمر قد يسرى فى المنتسبين إلى الدين من الخاصة ، كما قال غير واحد من السلف منهم ابن عيينة[٢] ، فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلى به بعض المنتسبين إلى العلم ، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلى

---

(١) سورة التوبة ٦٩ .

(٢) تهذيب التهذيب ٤/١١٧ - ١٢٢ .

ولد سنة ١٠٧ هـ قال الشافعى رحمه الله لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز .

وقال ابن وهب مارأيت أحداً أعلم بكتاب الله من ابن عيينة .

وقال الشافعى ما رأيت أحداً من الناس فيه جزالة العلم مافى ابن عيينة ومارأيت أحداً ألف عن الفتيا منه .

وقال ابن سعد أخبرنى الحسن بن عمران بن عيينة بن سفيان قال له بجمع آخر حجة حجها قد وافيت هذا الموضوع سبعين مرة أقول فى كل سنة اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان وإنى قد استحييت من الله من كثرة ماأسأله ذلك خرج فتوفى فى السنة الداخلة وقال الواقدى : مات يوم السبت أول يوم من رجب سنة ١٩٨هـ .

به بعض المنتسبين إلى الدين ، كما يبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذى بعث الله به محمداً ﷺ ، ثم نزله على أحوال الناس .

وإذا كان الأمر كذلك فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، وكان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشى به فى الناس ، لابد أن يلاحظ أحوال الجاهلية وطريق الأمتين المغضوب عليه والضالين من اليهود والنصارى ، فيرى أن قد ابتلى ببعض ذلك .

فأنفع ما للخاصة والعامة العلم بما يخلص النفوس من هذه الورضات وهو إتباع السيئات الحسنات .

والحسنات ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات .

ومما يزيل موجب الذنوب المصائب المكفرة ، وهى كل ما يؤلم من هم أو حزن أو أذى فى مال أو عرض أو

جسد أو غير ذلك ، لكن ليس هذا من فعل العبد .

فلما قضى بهاتين الكلمتين : حق الله من عمل الصالح وإصلاح الفاسد ، قال :

« وخالق الناس بخلق حسن » وهو حق الناس . وجماع الخلق الحسن مع الناس .

أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه ، والزيارة له ، وتعطى من حرمك من التعليم والمنفعة والمال ، وتعفو عمن ظلمك فى دم أو مال أو عرض . وبعض هذا واجب وبعضه مستحب .

وأما الخلق العظيم الذى وصف الله به محمداً ﷺ فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً ، هكذا قال مجاهد وغيره وهو تأويل القرآن ، كما قالت عائشة رضى

الله عنها « كان خلقه القرآن »[1] وحقيقته المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفس وانشراح صدر .

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله فى التفسير ٨/٢١٤ .

قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ قال العوفى ، عن ابن عباس : أى وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام . وكذلك قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وابن زيد .

وقال عطية : لعلى أدب عظيم : وقال معمر ، عن قتادة : سُئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ - قالت : كان خلقه القرآن ، تقول : كما هو فى القرآن .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة قوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ، ذُكر لنا أن سعد بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبرينى يا أم=

وأما بيان أن هذا كله فى وصية الله ، فهو أن اسم تقوى الله يجمع فعل كل ماأمر الله به إيجاباً واستحباباً ،

=المؤمنين - عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت : « أتقرأ القرآن ؟ قلت نعم . فقالت : كان خلقه القرآن » .

هذا حديث طويل . وقد رواه الإمام مسلم ١٦٨/٢ - ١٧٠ فى صحيحه ، من حديث قتادة بطوله .

وقال الإمام أحمد ٢١٦/٦ حدثنا إسماعيل ، حدثنا يونس ، عن الحسن قال : « سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن » .

وقال الإمام أحمد ١١١/٦ حدثنا أسود ، حدثنا شريك ، عن قيس بن وهب ، عن رجل من بنى سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ ؟ قال : قلت : حدثينى عن ذاك : قال : صنعت له طعاماً ، وصنعت له حفصة طعاماً ، فقلت لجاريتى : اذهبى فإن جاءت هى بالطعام فوضعته قبلُ فاطرحى الطعام ! قالت : فجاءت بالطعام . قالت : فألقت الجارية فوقعت القصعة فانكسرت - وكان نطْعٌ قالت : فجمعه رسول الله ﷺ وقال : « اقتصوا - أو ! اقتصى - شك أسود - ظرفا مكان ظرفك » . قالت : فما قال شيئاً . =

واجتناب ما نهى عنه تحريماً وتنزيهاً ؛ وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد .

= وقال ابن جرير ١٣/٢٩ حدثنا عبيد بن آدم بن أبى إياس ، حدثنا أبى ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن سعد ابن هشام : قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبرينى بخُلق النبى ﷺ . فقالت : كان خلقه القرآن أما تقرأ : ﴿ وإنك لعلى خلُقٍ عظيم ﴾ ؟

وقد روى أبو داود فى التطوع باب فى صلاة الليل والنسائى ، من حديث الحسن ، نحوه .

وقال ابن جرير ١٣/٢٩ حدثنى يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرنى معاوية بن صالح ، عن أبى الزاهرية ، عن جُبَير بن نُفَير قال : حججتُ فدخلتُ على عائشة - رضى الله عنها - فسألتُها عن خلُقِ رسول الله ﷺ فقالت : كان خلُقُ رسول الله ﷺ القرآن .

هكذا رواه أحمد ١٨٨/٦ عن عبد الرحمن بن مهدى . ورواه النسائى فى التفسير ، عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الرحمن ابن مهدى ، عن معاوية بن صالح ، به .

ومعنى هذا أنه - عليه السلام - صار امتثالُ القرآن ، أمراً ونهياً ، سجيةً له ، وخلقاً تَطَبَّعَه ، وترك طبعه الجِبلِّىْ ، فمهما أمره =

لكن لما كان تارة يعنى بالتقوى خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم ، جاء مفسراً فى حديث

=القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبَلَه الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم ، والشجاعة والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين فما قال لى «أف» قطّ ، ولا قال لشيء فعلته : لم فعلتَه ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟. وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مَسسْتُ خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شَممْتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ .

انظر مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً » : ٧٣/٧ - ٧٤ وباب « طيب رائحة النبى ﷺ ولين مسه ، والتبرك بمسحه » : ٨٠/٧ - ٨١ . والبخارى ، كتاب المناقب ٢٣٠/٥ . ومسند الإمام أحمد : ١٠٧/٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٢ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٧٠ .

وقال البخارى ٢٢٨/٤ : [حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله] حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا إبراهيم بن يوسف عن أبيه ، عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس=

معاذ ، وكذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنهما الذى رواه الترمذى وصححه « قيل يارسول الله ماأكثر مايدخل الناس الجنة ؟ قال : تقوى الله وحسن الخلق .

=وجهاً وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل [البائن] ولا بالقصير .
والأحاديث فى هذا كثيرة ، ولأبى عيسى الترمذى فى هذا كتاب « الشمائل » .

وقال الإمام أحمد ٦/٢٣٢ حدثنا عبد الرازق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن عُرْوة ، عن عائشة قالت : ماضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله . ولا خَيرُ بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثما ، فإذا كان إثما كان أبعد الناس ، من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله ، فيكون هو ينتقم لله عز وجل .

وقال الإمام أحمد ٢/٣٨١ حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا عبدالعِزيز بن محمد ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هُريرة قال : قال رسولُ الله ﷺ « إنما بُعثتُ لأتِمم صالح الأخلاق » .. تفرد به .

قيل : وما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ قال : الأجوفان : الفم والفرج »[١].

---

(١) شرح السنة ٨٠/١٣ - مسند أحمد ٢٩١/٢ - المستدرك ٣٢٤/٤ - ابن ماجه ٤٢٤٦ - تحفة الأحوذى ١٤٢/٦ وقال الترمذى هذا حديث صحيح غريب . وقال المبارك فورى : قوله : (أكثر ما يدخل الناس الجنة) أى أكثر أسباب إدخالهم الجنة مع الفائزين (تقوى الله) وله مراتب أدناها التقوى عن الشرك (وحسن الخلق) أى مع الخلق وأدناها أذاهم وأعلاه الإحسان إلى من أساء إليه منهم . (الفم والفرج) لأن المرء غالبا بسببهما يقع فى مخالفة الخالق وترك المخالفة مع المخلوق قال الطيبى قوله : تقوى الله إشارة إلى حسن المعاشرة مع الخالق بأن يأتى جميع ما أمره به وينتهى عن مانهى عنه وحسن الخلق إشارة إلى حسن المعاملة مع الخلق وهاتان الخصلتان موجبتان لدخول الجنة ونقيضهما لدخول النار فأوقع الفم والفرج مقابلا لهما . أما الفم فتشمل على اللسان وحفظه ملاك أمر الدين كله وأكل الحلال رأس التقوى كله . وأما الفرج فصونه من أعظم مراتب الدين قال تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ لأن هذه الشهوة أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها على العقل عند الهيجان ومن ترك الزنا خوفا من الله تعالى مع القدرة وارتفاع الموانع وتيسر الأسباب لاسيما عن صدق الشهوة وصل=

وفى الصحيح عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »[١] .

=إلى درجة الصديقين قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ ومعنى الأكثرية فى الجملتين أن أكثر أسباب السعادة الأبدية الجمع بين الخلتين وأن أكثر أسباب الشقاوة السرمدية الجمع بين هاتين الخصلتين .

(١) الترغيب والترهيب ٣/٤١١ - التمهيد لابن عبد البر ٩/٢٣٧ و٢٤٤ - وأبو داود رقم ٤٦٨٢ - الترمذى ١١٦٢ وقال حسن صحيح وقال المناوى رحمه الله فى فيض القدير ٢/٩٧ [١٤٤٠] قوله : (أحسن خلقا) لأن هذا الدين مبنى على السخاء وحسن الخلق ولا يصلح إلا بهما فكمال إيمان الإنسان ونقصه على قدر ذلك ولا يناقضه أنه جبلى غريزى لأنه وإن كان سجية أصالة لكن يمكن اكتساب تحسينه بنحو نظر فى أخلاق المصطفى ﷺ والحكماء - الصالحين - ثم بتصفية النفس عن ذميم الأوصاف وقبيح الخصال ثم برياضتها إلى تحليها بالكمال ومعالى الأحوال وحينئذ فيثاب على تلك الأخلاق لأنها من كسبه اهـ .

فجعل كمال الإيمان فى كمال حسن الخلق ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله .

وتفصيل أصول التقوى وفروعها لا يحتمله هذا الموضع ، فإنها الدين كله ، لكن ينبوع الخير وأصله : إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة كما فى قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[١] وفى قوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[٢] وفى قوله : ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[٣] وفى قوله : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ﴾[٤] بحيث يقطع العبد تعلق قلبه من المخلوقين انتفاعاً بهم أو عملا لأجلهم ، ويجعل همته ربه تعالى ، وذلك بملازمة الدعاء له فى كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك ، والعمل له بكل محبوب . ومن أحكم هذا فلا يمكن أن يوصف مايعقبه ذلك .

---

(١) فاتحة الكتاب آية ٥ . (٢) سورة هود آية ١٢٣ .
(٣) سورة الشورى آية ١٠ . (٤) سورة العنكبوت اية ١٧

أفضل الأعمال

وأما ما سألت عنه فى أفضل الأعمال بعد الفرائض فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم ، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد ، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره : أن ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شغل العبد به نفسه فى الجملة ، وعلى ذلك دل حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم :

« سبق المفردون ، قالوا يارسول الله : ومن المفردون ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات »[1] .

---

(١) رواه مسلم ٥/٥٣٥ [نووى شعب] قال النووى رحمه الله .
قوله ﷺ : (سبق المفردون) قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات هكذا الرواية فيه (المفردون) =

وفيما رواه أبو داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ذكر الله »[1] .

= بفتح الفاء وكسر الراء المشددة ، وهكذا نقله القاضى عن متقنى شيوخهم ، وذكر غيره أنه روى بتخفيفها وإسكان الفاء ، يقال : فرد الرجل وفرد بالتخفيف والتشديد ، وأفراد ، وقد فسرهم رسول الله ﷺ بالذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، تقديره والذاكراته ، فحذفت الهاء هنا كما حذفت فى القرآن لمناسبة رءوس الآى ، ولأنه مفعول يجوز حذفه ، وهذا التفسير هو مراد الحديث ، قال ابن قتيبة وغيره : وأصل المفردين الذين هلك أقرانهم وانفردوا عنهم ، فبقوا يذكرون الله تعالى ، وجاء فى رواية ﴿ هم الذين اهتزوا فى ذكر الله ﴾ أى لهجوا به وقال ابن الأعرابى يقال فرد الرجل إذا تفقه واعتزل وخلا بمراعاة الأمر والنهى .

١ - شرح السنة ١٥/٥ - التمهيد لابن عبد البر ٥٨/٦ - الترمذى ٣٣٧٧ تحفة الأحوذى ٣١٧/٩ . =

والدلائل القرآنية والإيمانية بصراً وخبراً ونظرا على ذلك كثيرة .

وأقل ذلك أن يلازم العبد الأذكار المأثورة عن معلم الخير وإمام المتقين ﷺ كالأذكار المؤقتة فى أول النهار وآخره ، وعند أخذ المضجع ، وعند الاستيقاظ من

= قال المبارك فورى قوله (ألا أنبئكم) أى ألا أخبركم (وأزكاها) أى أنماها وأنقاها والزكاء النماء والبركة (عند مليككم) المليك بمعنى المالك للمبالغة .

وقال فى القاموس الملك ككتف وأمير وصاحب والملك (وخير لكم من إنفاق الذهب والورق) الورق والفضة . قال الطيبى : قوله وخيرٍ مجرور عطفا على خير أعمالكم من حيث المعنى لأن المعنى ألا أنبئكم بما هو خير لكم من بذل أموالكم وأنفسكم فى سبيل الله اهـ .

قال (ذكر الله) قال شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام — فى قواعده :

هذا الحديث مما يدل على أن الثواب لا يترتب على قدر النصب فى جميع العبارات بل قد يأجر الله تعالى على قليل الأعمال أكثر مما يأجر على كثيرها فإذا الثواب يترتب على تفاوت الرتب فى الشرف .

المنام ، وأدبار الصلوات ، والأذكار المقيدة ، مثل ما يقال عند الأكل[1] والشرب واللباس .

---

(١) روى الترمذى [٣٤٥٥] عن ابن عباس رضى الله عنه قال : دخلت مع رسول الله ﷺ أنا وخالد بن الوليد على ميمونة [رضى الله عنها] فجاءتنا بإناء فيه لبن فشرب رسول الله ﷺ وأنا على يمينه وخالد عَلَى شِمَالِهِ ، فَقَالَ لِى : الشَّرْبَةُ لَكَ ، فَإِنْ شِئْتَ آثَرْتَ بِهَا خَالِدًا ، فَقُلْتُ : مَا كُنْتُ أُوثِرُ عَلَى سُؤْرِكَ أَحداً ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ أَطْعَمَهُ اللَّهُ الطَّعَامَ فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْراً مِنْهُ ، وَمَنْ سَقَاهُ اللَّهُ لَبَناً فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عليْهِ وَسَلَّمَ : لَيْسَ شَىْءٌ يُجْزِى مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرُ اللَّبَنِ .

قَالَ : هٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وروى عن أبى امامة [٣٤٥٦] قال : كان رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا رُفِعَتِ الْمَائِدَةُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يَقُولُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ وَلَامُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبُّنَا . قَالَ : هٰذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

والجماع[١] ، ودخول المنزل[٢] ، والمسجد والخلاء

= ومعنى قوله : (غير مودع الخ) بنصب غير على أنه حال من الحمد ومودع اسم مفعول من التوديع : أى غير متروك أو حال من الطعام . يعنى لا يكون آخر طعامنا من الله ، وغير مستغنى عنه . أى هو محتاج إليه . وربنا روى بالرفع والنصب والجر : فالرفع على تقدير هو ربنا أو أنت ربنا اسمع حمدنا ودعانا أو على أنه مبتدأ خبره غير بالرفع وتقدم عليه ، والنصب على أنه منادى حذف منه ياء النداء أو على المدح أو الاختصاص والجر على أنه بدل من لفظ الله أو على أنه بدل من الضمير فى عنه .

(١) عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ آلنَّبِىُّ ﷺ : « لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذا أَرَادَ أَنْ يَأْتِىَ أَهْلَهُ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا آلشَّيْطَانَ ، وجَنِّبِ آلشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا ، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فى ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَداً » متفق عليه رواه البخارى فى الدعوات باب ما يقول إذا أتى أهله ومسلم (١٤٣٤) النكاح باب ما يستحب أن يقول عند الجماع وانظر أبو داود ٢١٦١ ، الترمذى ١٠٩٢ ، ابن ماجه ١٩١٩ .

(٢) عن أنس بن مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَنْ قَالَ : =

والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد[1]، إلى غير ذلك، وقد صنفت له الكتب المسماة بعمل يوم وليلة[2].

= يَعْنِي إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ : بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، يُقَالُ لَهُ كُفِيتَ وَوُقِيتَ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ . رواه الترمذى وقال حَسَنٌ صَحِيحٌ . غريب [انظر الترمذى رقم ٣٤٢٦] . وروى الترمذى [٣٤٢٧] عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كانَ إِذا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ . اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نَزِلَّ أَوْ نَضِلَّ أَوْ نَظْلِمَ أَو نُظْلَمَ أَوْ نَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا . وقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(١) الترمذى رقم ٣٤٥٠ عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ قَالَ : اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ .

قَالَ : هٰذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هٰذَا الْوَجْهِ .

(٢) حرصت مكتبة التراث الإسلامى على نشر كتب الأدعية والأذكار المتعلقة بأعمال اليوم والليلة مثل :

- عمل اليوم والليلة لابن السنى . =

ثم ملازمة الذكر مطلقاً ، وأفضله لا إله إلا الله . وقد تعرض أحوال يكون بقية الذكر مثل : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله أفضل منه .

ثم يعلم أن كل ما تكلم به اللسان وتصوره القلب مما يقرب إلى الله من تعلم علم وتعليمه ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر فهو من ذكر الله . ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض ، أو جلس مجلساً يتفقه أو يفقه فيه الفقه الذى سماه الله ورسوله فقها ، فهذا أيضا من أفضل ذكر الله . وعلى ذلك إذا تدبرت لم تجد بين الأولين فى كلماتهم فى أفضل الأعمال كبير اختلاف .

=

- الدعاء المستجاب للأستاذ أشرف حجازى .
- دعاء الرسول ﷺ للأستاذ عبد الله حجاج .
- الوابل الصيب لابن قيم الجوزية المشتمل على فضائل الذكر والدعاء وأذكار اليوم والليلة [الناشر] .

وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة[1] ، فما ندم من استخار الله تعالى . وليكثر من

---

(١) البخارى ٢/٧٠ ، ٨/١٠١ ، ٩/١٤٤ - الترمذى ٤٨٠ - أبو داود ١٥٣٨ - النسائى ٦/٨٠ - ابن ماجة ١٣٨٣ - البيهقى ٣/٥٢ ، ٥/٢٤٩ ، الكلم الطيب رقم ١١٥ - تحفة الأحوذى ٢/٥٩١.

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إنى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك واسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم إن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعيشتى وعاقبة أمرى أو قال فى عاجل أمرى وآجله فيسره لى ثم بارك لى فيه وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعيشتى وعاقبة أمرى ، أو قال عاجل أمرى آجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدُر لى الخير حيث كان ثم أرضى به . قال ويسمى حاجته .

قال المباركفورى فى التحفة ٢/٥٩١ :

قوله (يعلمنا الاستخارة) أى صلاة الاستخارة ودعاءها (فى الأمور) زاد فى رواية البخارى كلها وفيه دليل على العموم وأن المرء=

ذلك ومن الدعاء ، فإنه مفتاح كل خير ، ولا يعجل

=لا يحتقر أمراً لصغره وعدم الاهتمام به فيترك الاستخارة فيه فرب أمر يستخف بأمره فيكون فى الإقدام عليه ضرر عظيم أو فى تركه .

(كما يعلمنا السورة من القرآن) فيه دليل على الإهتمام بأمر الاستخارة وأنه متأكد مرغب فيه (إذا هم) أى قصد (بالأمر) أى من نكاح أو سفر أوغيرهما مما يريد فعله أو تركه (فليركع ركعتين) أى فليصل ركعتين (من غير الفريضة) فيه دليل على أنه لا تحصل سنة صلاة الاستخارة بوقوع الدعاء بعد صلاة الفريضة (ثم ليقل) أى بعد الصلاة (اللهم إنى استخيرك) أى أطلب منك الخير والخيرة قال صاحب المحكم : استخار الله طلب منه الخير وقال صاحب النهاية : خار الله لك أى أعطاك الله ماهو خير لك .

(بعلمك) الباء فيه وفى قوله بقدرتك للتعليل أى بأنك أعلم واقدر قاله زين الدين العراقى .

وقال الكرمانى : يحتمل أن تكون للاستعانة وأن تكون للاستعطاف كما فى قوله تعالى : ﴿ رب بما أنعمت على ﴾ أى بحق علمك وقدرتك الشاملين كذا فى عمدة القارى وقال القارى فى المرقاة : أى بسبب علمك والمعنى أطلب منك أن تشرح صدرى لخير الأمرين بسبب علمك بكيفيات الأمور وجزئياتها وكلياتها إذ لا يحيط بخير الأمرين على الحقيقة إلا من هو كذلك كما قال تعالى : ﴿ عسى أن=

= تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم واللَّهُ يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

(واستقدرك) أى أطلب منك أن تجعل لى قدرة عليه (وأسألك من فضلك العظيم) أى تعيين الخير وتبيينه وتقديره وتيسيره وعطاء القدرة لى عليه (اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر قال الطيبى معناه اللهم إنك تعلم فأوقع الكلام موقع الشك على معنى التفويض إليه والرضا بعلمه فيه .

وهذا النوع يسميه أهل البلاغة تجاهل العارف ومزج الشك باليقين ويحتمل أن الشك فى أن العلم متعلق بالخير أو الشر لا فى أصل العلم .

قال القارى والقول الآخر هو الظاهر ونتوقف فى جواز الأول بالنسبة إلى الله تعالى .

وفى الحديث استحباب صلاة الاستخارة والدعاء المأثور بعدها فى الأمور التى لا يدرى العبد وجه الصواب فيها أما ماهو معروف خيره كالعبادات وصنائع المعروف فلا حاجة للاستخارة فيها .

قال النووى إذا استخار مضى بعدها لما شرح له صدره انتهى .

وهل يستحب تكرار الصلاة والدعاء فى الأمر الواحد إذا لم يظهر له وجه الصواب فى الفعل أو الترك مما لم ينشرح له صدره ؟ قال العراقى : الظاهرة الاستحباب وقال النووى رحمه الله : يستحب أن يقرأ فى ركعتى الاستخارة فى الأولى بعد الفاتحة ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ =

فيقول قد دعوت فلم يستجب لى[1] ، وليتحرّ الأوقات الفاضلة كآخر الليل وأدبار الصلوات وعند الأذان ، ووقت نزول المطر ونحو ذلك .

=وفى الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ . وقال العراقى : لم أجد فى شىء من طرق أحاديث الاستخارة ما يقرأ فيهما .

(١) عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : « يَسْتَجِيْبُ اللَّهُ لأَحِدِكُمْ مَالَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ ، أَوْ قَطِيْعَةِ رَحِمٍ ، أَوْ يَسْتَعْجِلْ » ، قَالُوا : وَمَا الاسْتِعْجَالُ يا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « يَقُولُ : قَدْ دَعَوْتُكَ يَارَبِّ ، قَدْ دَعَوْتُكَ يَارَبِّ ، قَدْ دَعَوْتُكَ يَارَبِّ ، فَلَا أَرَاكَ تَسْتَجِيْبُ لى ، فَيَنْحَسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَيَدَعُ الدُّعَاءَ » .

قال البغوى فى شرح السنة ١٩١/٥ قوله : « فينحسر » ويروى « فيتحسر » أى يمل .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا يستحسرون » [الأنبياء/١٩] أى لا ينقطعون عن العبادة .

وقوله عز وجل : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسِئاً وهو حسير ﴾ [الملك/٤] أى : كليل منقطع . =

أرجح المكاسب

وأما أرجح المكاسب : فالتوكل على الله ، والثقة بكفايته ، وحسن الظن به . وذلك أنه ينبغى للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى الله ويدعوه ، كما قال سبحانه فيما يأثر عنه نبيه « كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم »[1] .

= قال أبو الدرداء رضى الله عنه : من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له . انظر مسلم الذكر والدعاء باب بيان أنه يستجاب للداعى مالم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لى - البخارى الدعوات باب يستجاب للعبد مالم يعجل .

(١) مسلم ٥/٤٣٩ من طريق سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِى إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِىِّ عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : ﴿ يا عِبَادِى إِنِّى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِى أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِى كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ

=فَاسْتَطْعِمُونِى أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِى أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِى إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِى ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِى ، يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذٰلِكَ فِى مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِى شَيْئًا يَا عِبَادِى لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِى فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِمَّا عِنْدِى إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِى إِنَّمَا هِىَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ﴾ . قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِىُّ إِذَا حَدَّثَ بِهٰذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ .

قال النووى : قوله تعالى : ﴿ إنى حرمت الظلم على نفسى ﴾ قال العلماء : معناه تقدست عنه ، وتعاليت ، والظلم مستحيل فى حق الله سبحانه وتعالى ، يجاوز سبحانه حداً ، وليس فوقه من يطيعه ، وكيف يتصرف فى غير ملك والعالم كله فى ملكه وسلطانه وأصل التحريم فى اللغة : المنع فسمى تقدسه عن الظلم تحريماً لمشابهته للمنوع فى أصل عدم الشيء .

=

وفيما رواه الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ليسأل أحدكم ربه حاجته

قوله تعالى : ﴿ وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ﴾ هو بفتح التاء أى لا تتظالموا ، والمراد : لا يظلم بعضكم بعضا ، وهذا توكيد لقوله تعالى : ﴿ ياعبادى وجعلته محرما بينكم ﴾ وزيادة تغليظ فى تحريمه .

قوله تعالى : ﴿ كلكم ضال إلا من هديته ﴾ قال المازرى : ظاهر هذا إنهم خلقوا على الضلال إلا من هداه الله تعالى .

وفى الحديث المشهور كل مولود يولد على الفطرة ، قال : فقد يكون المراد بالأول وصفهم بما كانوا عليه قبل مبعث النبى ﷺ ، وأنهم لو تركوا ومافى طباعهم من إيثار الشهوات والراحة ، وإهمال النظر لضلوا ، وهذا الثانى أظهر .

وفى هذا دليل لمذهب أصحابنا وسائر أهل السنة ، أن المهتدى هو من هداه الله ، وبهدى الله اهتدى ، وبارادة الله تعالى ذلك ، وأنه سبحانه وتعالى إنما أراد هداية بعض عباده وهم المهتدون ، ولم يرد هداية الآخرين ، ولو أرادها لاهتدوا خلافا للمعتزلة فى قولهم الفاسد : أنه سبحانه وتعالى أراد هداية الجميع — جل الله أن يريد مالا يقع أو يقع مالا يريد .

قوله تعالى : « مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر » المخيط بكسر الميم وفتح الياء ، هو الإبرة ، قال العلماء :=

كلها حتى شسع نعله إذا انقطع ، فإنه إن لم ييسره لم يتيسر »[١] وقد قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ فإذا قضيت الصلاة

= هذا تقريب إلى الأفهام ، ومعناه لا ينقص شيئاً أصلا ، كما قال فى الحديث الآخر : لا يغيضها نفقة ؛ أى لا ينقصها نفقة لأن ما عند الله لا يدخله نقص ، وإنما يدخل النقص المحدود الفانى ، وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه ، وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص ، فضرب المثل بالمخيط فى البحر ؛ لأنه غاية ما يضرب بالمثل فى القلة ، والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه ، فإن البحر من أعظم المرئيات عياناً وأكبرها ، والإبرة من أصغر الموجودات مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء . والله أعلم .

قوله تعالى : (يا عِبَادِى إنكم تخطئون بالليل والنهار) الرواية المشهورة (تخطئون) بضم التاء وبورى بفتحها وفتح الطاء . يقال : خطىء يخطأ إذا فعل ما يأثم به فهو خاطىء ومنه قوله تعالى : ﴿ استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ [يوسف ٩٧] ويقال فى الإثم أيضاً أخطأ فهما صحيحان .

(١) تحفة الأحوذى ١٠/٧٢ و ٧٣ الشسع : قال الطيبى أحد سيور النعل بين الأصبعين وهذا من باب التتميم لأن ما قبله جىء فى المهمات وما بعده فى المتممات .

(٢) سورة النساء الآية ٣٢ .

فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾[1] وهذا وإن كان فى الجمعة فمعناه قائم فى جميع الصلوات .

---

(١) قال ابن كثير فى التفسير ٨/١٤٩ .

قوله : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ ، أى : فُرِغ منها ، ﴿ فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ﴾ : لَمَّا حَجَر عليهم فى التصرف بعد النداء وأمرهم بالإجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ فى الانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله . كان عِرَاك بن مالك - رضى الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم : أجبتُ دعوتَك ، وصليتُ فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك ، وأنت خير الرازقين . رواه ابن أبى حاتم .

ورُوى عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى فى يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة ، لقوله الله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ﴾ .

وقوله : ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ ، أى : فى حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعَطَائكم ، اذكروا الله ذكراً كثيراً ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة . ولهذا جاء فى الحديث : « من دخل سوقاً من الأسواق فقال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، [له الملك] وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير » كُتِبَتْ له ألفُ ألف حَسنَة ، ومُحي عنه ألفُ ألف سيئة . [تحفة الأحوذى ٩/٣٨٦ - ٣٨٧] . =

= وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً ، حتى يذكر الله [قائماً] وقاعداً ومضطجعاً .

وقال تعالى فى سورة تبارك : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ .

قال ابن كثير رحمه الله ٨/٢٠٦ . ذكر الله نعمته على خلقه فى تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها ﴾ ، أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم . ولهذا قال : ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما قال الإمام أحمد ١/٣٠ و٥٢ .

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، أخبرنى بكر بن عمرو : أنه سمع عبد الله بن هُبَيرة يقول : إنه سمع أبا تميم الجَيشَانى يقول : إنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا .

[خماصاً : جياعاً . وبطاناً : ممتلئة الأجواف . تحفة الأحوذى ٨/٧] .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، من حديث ابن هبيرة، وقال=

ولهذا والله أعلم أمر النبي ﷺ للذي يدخل المسجد أن يقول : « اللهم افتح لي أبواب رحمتك »[1] وإذا خرج أن يقول : « اللهم إني أسألك من فضلك » وقد قال الخليل ﷺ : ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا

= الترمذى (تحفة الأحوذى ٧/٨) فأثبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق ، مع توكلها على الله – عز وجل – وهو المسخر المسير المسبب . ﴿ وإليه النشور ﴾ ، أى : المرجع يوم القيامة . وانظر ابن ماجه ٢/١٣٩٤ [٤١٦٤] .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مناكبها ﴾ أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مناكبها ﴾ الجبال .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن حكام الأزدى ، حدثنا شعبة : عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن بشير بن كعب : أنه قرأ هذه الآية : ﴿ فامشوا فى مناكبها ﴾ فقال لأم ولد له : إن علمت ﴿ مناكبها ﴾ فأنت عتيقة : فقالت : هى الجبال : فسأل أبا الدرداء فقال : هى الجبال .

(١) شرح السنة ٢/٣٦٨ – مسلم ص ٤٩٤ – ابن ماجه ٧٧٣ و ٧٧٢ – البيهقى ٢/٤٤١ و ٤٤٢ – ابن السنى رقم ٨٤ و ١٥٣ – الأذكار النووية ص ٣٢ .

له ﴾[1] وهذا أمر ، والأمر يقتضى الإيجاب . فالاستعانة بالله واللجأ إليه فى أمر الرزق وغيره أصل عظيم .

ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه ، ولا يأخذه بإشراف وهلع ، بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذى يحتاج إليه من غير أن يكون له فى القلب مكانة ، والسعى فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء .

وفى الحديث المرفوع رواه الترمذى وغيره .

« من أصبح والدنيا أكبر همه شتت الله عليه شمله ، وفرق عليه ضيعته ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له . ومن أصبح والآخرة أكبر همه جمع الله عليه شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة »[2] .

---

(١) سورة العنكبوت آية ١٩ .

(٢) أحمد ٥/١٨٣ – الاحياء ٣/٣٣٩ – الترمذى القيامة باب ٣٠ تحفة الأحوذى ٧/١٦٥ .

قال المبارك فورى قول واتته الدنيا وهى راغمة أى ذليلة حقيرة تابعة له لا يحتاج فى طلبها إلى سعى كثير بل تأتيه هينة لينة على رغم=

وقال بعض السلف : أنت محتاج إلى الدنيا وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مر على نصيبك من الدنيا فانتظمه انتظاماً .

قال الله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون .

= أنفها وأنف أربابها (ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله) .

قال الطيبى يقال جمع الله شمله أى ما تشتت من أمره وفرق الله شمله أى ما اجتمع من أمره فهو من الأضرار (ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له) أى وهو راغم فلا يأتيه ما يطيب من الزيادة على رغم أنفه وأنف أصحابه .

وقال المنذرى فى الترغيب بعد ذكر هذا الحديث فى اسناده يزيد وقد وثق ولا بأس به فى المتابعات وقال ورواه البزار ولفظه قال رسول الله ﷺ : « من كانت نيته الآخرة جعل الله تبارك وتعالى الغنا فى قلبه وجمع شمله ونزع الفقر بين عينيه وأتته الدنيا وهى راغمة فلا يصبح إلا غنياً ولا يمس إلا غنياً ومن كانت نيته الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه فلا يصبح إلا فقيراً ولا يمسى إلا فقيراً ورواه الطبرانى .

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[1]

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦ .
قال القرطبي رحمه الله في التفسير ٥٥/١٧ . قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ قيل إن هذا حاصل فيمن سبق في علم الله أنه يعبده فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص . والمعنى وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون .
قال القشيري رحمه الله : والآية دخلها التخصيص على القطع ، لأن المجانين والصبيان ماأمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة وقد قال الله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة .
فالآية محمولة على المؤمنين وهو كقوله تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا ﴾ وإنما قال فريق منهم .
وقال عليّ كرم الله وجهه . أي وما خلقت الجن والإنس لآمرهم بالعبادة . واعتمد الزجاج على هذا القول ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وما أُمِرُوا إلا ليعبدوا إلهًا واحِدًا ﴾ . فإن قيل كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيته والتذلل لأمره ومشيئته ؟ قيل قد تذللوا لقضائه عليهم لأن قضاءه جار عليهم لا يقدرون على الامتناع منه وإنما خالفهم من كفر في العمل بما أمره به فأما التذلل لقضائه فإنه غير ممتنع منه =

فأما تعيين مكسب على مكسب من صناعة أو تجارة أو بناية أو حراثة أو غير ذلك فهذا مختلف باختلاف الناس ، ولا أعلم فى ذلك شيئاً عاماً ، لكن إذا عنّ للإنسان جهة فليستخر الله تعالى فيها الاستخارة المتلقاة عن معلم الخير ﷺ ، فإن فيها من البركة مالا يحاط به . ثم ما تيسر له فلا يتكلف غيره إلا أن يكون منه كراهة شرعية .

=وقيل ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أى إلا ليقروا لى بالعبادة طوعاً أو كرهاً فالكره ما يُرى فيهم من أثر الصنعة .

وقال ،يد بن أسلم : هو ما جبلوا عليه من الشقوة والسعادة فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة وخلق الأشقياء منهم للمعصيه .

وقال الكلبى : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ إلا ليوحدون .

فأما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء وأما الكافر فيوحده فى الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء .

يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دَعَوُا اللَّهَ مخلصين له الدين ﴾ الآية .

وقال عكرمة : إلا ليعبدون ويطيعون فأثيب العابد وأعاقب الجاحد .

وقيل المعنى إلا لأستعبدهم والمعنى مقارب تقول عبد بيِّن العبودة والعبودية وأصل العبودية الخضوع والذل والتعبيد التذليل . =

كتب العلوم وما ينفع منها

وأما ما تعتمد عليه من الكتب فى العلوم فهذا باب واسع ، وهو أيضا يختلف باختلاف نشء الإنسان فى البلاد ، فقد يتيسر له فى بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه مالا يتيسر له فى بلد آخر ، لكن جماع الخير أن يستعين بالله سبحانه فى تلقى العلم الموروث عن النبى ﷺ ، فإنه هو الذى يستحق أن يسمى علماً .

وما سواه إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً ، وإما أن لا يكون علماً وإن سمى به . ولئن كان علماً نافعاً

= ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ . قال ابن عباس وأبو الجوزاء أى ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادى ولا أن يطعموهم . ﴿ إنَّ الله هو الرازق ذو القوة المتينُ ﴾ أى الشديد القوى .

فلابد أن يكون فى ميراث محمد ﷺ ما يغنى عنه مما هو مثله وخير منه .

ولتكن همته فهم مقاصد الرسول فى أمره ونهيه وسائر كلامه . فإذا اطمأن قلبه أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك .

وليجتهد أن يعتصم فى كل باب من أبواب العلم بأصل مأثور عن النبى ﷺ .

وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدْع بما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام يصلى من الليل :

« اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل ، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه

من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[1] فإن الله تعالى قد قال فيما رواه عنه رسوله :

---

(١) مسلم صلاة المسافر بين ٢٠٠ .

قال النووى قوله : ﴿ اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض ﴾ قال العلماء خصهم بالذكر وإن كان الله تعالى رب كل المخلوقات كما تقرر فى القرآن والسنة من نظائره من الإضافة إلى كل عظيم المرتبة وكبير الشأن دون مايستحقر ويستصغر فيقال له سبحانه وتعالى : رب السموات والأرض رب العرش الكريم ورب الملائكة والروح رب المشرقين ورب المغربين رب الناس ملك الناس إله الناس رب العالمين رب كل شيء رب النبيين خالق السموات والأرض فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا فيها .

فكل ذلك وشبهه وصف له سبحانه بدلائل العظمة وعظيم القدرة والملك ولم يستعمل ذلك فيما يحتقر ويستصغر فلا يقال : رب الحشرات وخالق القردة والخنازير وشبه ذلك على الإفراد وإنما يقال خالق المخلوقات وخالق كل شيء وحينئذ تدخل هذه فى العموم والله أعلم ، قوله ﷺ : « إهدنى لما اختلف فيه من الحق ﴾ معناه تبتنى عليه كقوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ .

« ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » .

وأما وصف الكتب والمصنفين ، فقد سمع منا فى أثناء المذاكرة مايسره الله سبحانه . ومافى الكتب المصنفة المبوبة كتاب أنفع من صحيح محمد بن اسماعيل البخارى[1] ، لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم ولا يقوم بتمام المقصود للمتبحر فى أبواب العلم ، إذ لابد من معرفة أحاديث أُخَر وكلام أهل الفقه وأهل العلم فى الأمور التى يختص بعلمها بعض العلماء .

وقد أوعبت الأمة فى كل فن من فنون العلم إيعاباً ،

---

(١) البخارى : محمد بن اسماعيل البخارى إمام الحفاظ صاحب الصحيح والتصانيف ولد سنة أربع وسبعين ومائة وكان رأساً فى الذكاء والعلم والورع والسيادة حدث عنه الترمذى .

قال ابن خزيمة ماتحت أديم السماء أعلم منه بالحديث مات سنة ست وخمسين ومائتين .

فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك ، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالاً ، كما قال النبى ﷺ لأبى لبيد الأنصارى « أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى ؟ فماذا تعنى عنهم ؟ »[١] .

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد ، ويلهمنا رشدنا ، ويقينا شر أنفسنا ، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ويهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب . والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أشرف المرسلين ، . . .

---

(١) مسند أحمد ٤/١٦٠ و ٢١٨ و ٢١٩ .
وانظر تفسير ابن كثير ٣/١٤٠ .

رقم الايداع ٨٦/٣٥٥٩

مطابع سجل العرب